موت عزرائيل

في الزمان المجهول، في كَنَف الغيـ ... ـب وحيث الرُّجْعَى، وحيث المقرُّ
حيث تبدو الدنيا كأول عهدٍ ... ألقت فيه: بَلْقَعاً لا يَسُرُّ
قد توارى سكانها وتخلّوا ... تتساوى كوخٌ لديها وقصرُ
لا خرابٌ فيها فينعق بُومٌ ... أو غصونٌ فيها فينشد طيرُ
لا رياضٌ فيها فترتاح نفسٌ ... لا زهورٌ فيها فينتشر عطرُ
قد توارت أنهارُها، وتلاشى ... كلُّ حُسْنٍ منها، وغيّب سحرُ
ليس فيها إنسٌ يعيث وجنٌ ... ليس فيها وحشٌ يجوب وطيرُ
ساحةٌ يخطر السكون عليها ... لا دبيبٌ، لا همسةٌ تستمرُّ
لا زمانٌ ساعاتهُ تتوالى ... فتواري عصراً، ليعقب عصرُ
أو نهارٌ يمضي، ليعقب ليلٌ ... أو ظلامٌ يخفى، ليطلع فجرُ
سكنت ربعها فليست تدوّي ... عالمٌ ماتتِ الطبيعةِ صِفرُ

* * *

نظرُ اللهُ للدُّنى فرآها ... قد تلاشت آثارها فهي قَفرُ
مثل رأسٍ في القبر، كانت قديماً ... مَهْدَ فكرٍ يغزو الدُّنى وهي سِرُّ
نام عنها شرٌّ تولّد فيها ... واختفى غيُّها وكان يغرُّ
وتوارى منها بَنوها حيارى ... لم يفِدْهم جمعٌ هنالك وفرُ
أسلمتْهم للجهد والكدّ حتى ... أسلمتهم راحةٍ هي أسرُ
أخرجتْهم من ظلمةٍ فإذا هم ... بعد حينٍ في ظلمةٍ هي شرُّ
أخرجتْهم من ضيقٍ فإذا هم ... بعد حينٍ في عالمٍ هو قبرُ . . .
نظر اللهُ للدُّنى فرآها ... ليس فيها إلا خيالٌ يمرُّ

«إيه.. عزرائيل! هل تواروا جميعاً وتلاشوا عن هذه... واستقروا؟
واستردت أفلاذها من يمين؟... (قد تلاشوا مولاي، واضح دهر!)»

* * *

«إيه.. عزرائيل! حبلك الآن دانٍ فامضِ واجرعْ ما لستَ منهُ تفرُّ»

* * *

قضى خاشعاً وفي يده المنجـ ـلُ يهزُّهُ اهتزازةً هي ذُعْرُ
حائر الطرف في القفار كئيباً أتراهُ من موته يتشعرُ...؟
قد أذاق الموتَ الخلائقَ طُرّاً فليذُقْهُ!... فالموت حلوٌ ومُرُّ
ورأى تفكيرهُ في نواحٍ كان يسعى فيها فيُحْتَمُ أمرُ
غادياً يهبط الثرى فإذا في قبضتيهِ: عُمْرٌ، وعمرٌ، وعمرُ
محزناً يبعث الأسى حيث حلّتْ قدماهُ فيختفي منهُ بِشْرُ
قد يرامي تفكيرهُ فإذاهُ منصرٌ مسرحاً مراميهِ كُثْرُ...
تلك أمٌّ ضمّتْ حشاشةَ قلبٍ بين صدرٍ يحني الأسى ويُسِرُّ
قد تعالت أنفاسها دعواتٍ فإذا الموت بالحياة يمرُّ...
وكبيرٌ قد عاجلتهُ المنايا في فتاةٍ بالشيخ كانت تبرُّ
يرتميها في آخر العمر حكمٌ تتولى إغماضهُ فيقرُّ...
وفتاةٌ قال الردى بدويها فإذاها الى الشقاء تُجَرُّ
وحبيبٌ يشتاق رؤية وجهٍ فإذا الوجه في الثرى مستقرُّ
وأزاهير في الكرم راحت دون رَيْشٍ، وفي الأزاهير عطرُ
وبلادٌ أصابها في زعيمٍ كان ترنو اليهِ إن هبَّ شرُّ...
وتوالت رُؤى ضحاياهُ تبدي صُوَرَ الهول وهو أسودُ نُكْرُ
كل هذي الأشباح كانت سراعاً في خيال الموت الكئيب تمرُّ

* * *

ثم جاء الوقتُ الذي ليس منهُ في محيط الاقدار يوماً مَفَرُّ
فدَوَتْ صرخةٌ فدارت لها الأر ضُ وطافت اصداؤها لا تقرُّ
ودَوَتْ صرخةٌ تأسلم فيها ملك الموت روحَه تستقرُّ

حسن كامل الصيرفي